صحيح
جامع بيان العلم وفضله

للحافظ ابن عبد البر
رحمه الله

أعده واختصره وهذبه
أبو الأشبال الزهيري

الناشر
مكتبة ابن تيمية
القاهرة
هاتف ٨٦٤٢٤٠٦

توزيع
مكتبة العلم بجدة
حي الثغر هاتف ٦٨٧٧٠١٤


بسم الله الرحمن الرحيم

صَحِيحُ

جَامِع بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْلِهِ

الطبعة الأولى
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

تقديم

بقلم فضيلة الشيخ المربي الرباني محمد صفوت نور الدين
الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية

الحمد لله وحده ، والصلاة علىٰ خير خَلْقه ، وأشهد أن لا إله إلَّا الله رب العالمين ، وأن محمدًا رسوله المعلِّم الأمين .. وبعد .

لقد بعث الله سبحانه رسولًا كريمًا ، أنزل عليه القرآن الكريم ، وأمره أن يعمل بالكتاب ، ثم أمر الناس أن يعملوا بالكتاب علىٰ مقتضىٰ عمل الرسول صلىٰ الله عليه وسلم ، فصارت القدوة للناس كاملة بالنص والتطبيق العملي ، فقال الله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ [الأحزاب : ٢١] . وقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لأصحابه : « **أما لكم فيَّ أسوة** » ؟ أخرجه مسلم (رقم ٦٨١) ، ثم كان الأصحاب يسألون رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم عن المعنىٰ الذي لا يعرفونه أو الحكُم الذي يغيب عنهم فيجيبهم عن مسألتهم ، ويوضح لهم الفهم ، ويقرب إليهم العمل ، فعندما قالوا لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « ذهب أهل الدثور بالأجور ...» الحديث ، انظر كيف قرَّب لهم مفهوم الصدقة ؛ فجعل منها التسبيح والتكبير والتهليل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى جعل جِماع الرجل لزوجته التي أحلَّها الله له صدقة ، فلما صَعُبَ عليهم فَهْم قضاء الشهوة وحصول الأجر قرَّب لهم الفهم بقوله : « **أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه فيها وِزْرٌ ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ** » أخرجه مسلم (رقم ١٠٠٦) .

وعلىٰ هذا تم تقريب الشرع كله للصحابة حتى فهموا وعملوا فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **تركتكم على البيضاء ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلَّا هالك** » أخرجه ابن ماجه وأحمد بسند صحيح .

وكان دور الصحابة تقريب المفاهيم الشرعية للتابعين ، فكان من ذلك تدوين

القرآن الكريم وشرح ما غمض عليهم منه ، كما سأل عروة بن الزبير خالته عائشة رضي الله عنها عمَّا أُشْكِل عليه من قول الله عز وجل ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجَّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوَّف بهما** ﴾ [البقرة : ١٥٨] قال : يجوز أن أحج بغير طواف بين الصفا والمروة مادام ﴿ **لا جناح** ﴾ ، فوضحت عائشة رضي الله عنها الأمر ؛ فذكرت أن الأصنام كانت منصوبة علىٰ الصفا والمروة ، فتحرَّج الناس من الطوافَ بعد الإسلامْ فقال الله تعالى رَفْعًا لذلك الحرج ﴿ **لا جناح** ﴾ .

ثم لما كان الناس يتناقلون حديث النبي صلىٰ الله عليه وسلم ، فخافوا من دخول الكذب لظهور كذبة نُسبت لرجل أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قد حذر من ذلك بقوله : « **إن كذبًا عليَّ ليس ككذبٍ علىٰ أحد ، فمن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار** » .

فلما خاف السلف الكذب قالوا لرواة الحديث : « سمُّوا لنا رجالكم » فكان بعد ذلك لا يرویٰ الحديث إلَّا بمعرفة من رواه وعمَّن رواه ، فنشأ بذلك « علم الرجال » الذي أوسع علوم الدنيا اليوم .

وجاء عصر التدوين والجَمْع ، فجُمعت الأقوال علىٰ أساس ذِكْر الأقوال مُسْندة إلى قائلها سواء كان الحديث مرفوعًا إلى النبي صلىٰ الله عليه وسلم ، أو من أقوال الصحابة الكرام ، أو الأئمة من بعدهم ، ووضعوا قاعدة « من أسند لك فقد أَحَالَكَ » لسهولة معرفة الرجال وصدقهم وعدالتهم وضبطهم ، ولأن عزائم العلماء وطلبة العلم كانت متوفرة ووافية وقادرة على تحمل تلك المسئولية .

وبتوالي العصور طالت الأسانيد وضعفت الهمم ، فاحتاج الناس إلى تقريب النصوص أكثر من مجرد الإسناد ، فانبرىٰ لذلك علماء جهابذة نقدوا وميزوا بين المقبول والمردود ، فجمعوا الصحيح وما قاربه مما يكون عليه العمل في كتب مستقلة ، منها ما جمع النصوص فقط بغير أقوال الفقهاء مثل مسند أحمد وصحيح مسلم ، ومنها ما جمع مع الحديث أقوالًا فقهية ومعاني مستنبطة مثل موطأ مالك وصحيح البخاري .

ثم احتاج الناس إلى فصل الفقه الذي يُعمل به في كُتب خاصة ، فنشأت كتب الفقه « كالأم للشافعي » و « الخراج لأبي يوسف » وغيرها من الكتب التي قرَّبت المعاني الفقهية .

وسار الأئمة كذلك في تقسيم علوم الإسلام إلى فنون ، فمنهم من كتب في السير والمغازي ، ومنهم من كتب في الفقه ، ومنهم من جمع في الحديث ، ومنهم من كتب في التفسير .

ثم احتاج الناس إلى بيان الطرق التي استُنْبطتْ بها تلك الأحكام ، وهي موجودة في القرآن والسنة ؛ لكن لا يدركها إلَّا الجهابذة من الأئمة العلماء المجتهدين ، فصنَّفوا كُتب « أصول الفقه » لتقريب استنباط المعاني ، وكان أول هذه الكتب كتاب « الرسالة » للإمام الشافعي رحمه الله تعالىٰ .

كما احتاج الناس لمعرفة أحكام الحديث صحةً وضعفًا ، فصُنِّفت علوم الحديث المختلفة مع علم الرجال ، وتطويرًا له وتقريبًا للناس حتى يعرفوا الأحكام ، وكيف يطلقها العلماء .

ثم احتاج الناس للربط بين الحكم ودليله فكانت الشروح للمختصرات الفقهية وعمل الهوامش لها والحواشي ، وتنوعت الكتب وزادت زيادة كبيرة .

ولا تزال تلك المسيرة المباركة في التقريب متصلة الحلقات ؛ فنرىٰ اليوم من طلبة العلم من قدَّم خدمة لكتب معينة بأن ميَّز منها الصحيح من غيره ، وبعضهم جمع الصحيح وحده ، وجهود العلَّامة المحدِّث محمد ناصر الدين الألباني في ذلك واضحة فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، وكذلك سلسلة الصحيح المسند التي يقوم بها العلامة الشيخ مُقبل بن هادي الوادعي اليمني وجملة من تلامذته المباركين . وكثير من الدراسات الأخرىٰ علىٰ كتب السنة وكتب التفسير وكتب الفقه لتقريب تلك العلوم للناس بأقسامهم من علماء وطلبة علم وعوام حتى تعم الفائدة العلمية جميع أفراد الأمة فلا يُحرم أحدٌ من هذه الهداية التي بعث الله بها نبيه وليتحقق وعد الله الكريم ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [الحجر : ٩] .

لكن في القرون الأولىٰ ظهرت أقوال غير مستنبطة من الأدلة الشرعية وإن تذرَّع

أصحابها بشبهات من نصوص القرآن أو السنة ، فصاغوا القول فيها بأفكارهم فنشأت البدع المختلفة ، وكانت هذه البدع تختلف بُعدًا وقُربًا من الإسلام الصافي ، لكنها تجتمع كلها في قول النبي صلىٰ الله عليه وسلم : « **فإن كل بدعةٍ ضلالة** » وذلك هو طريق إطلاق العقل للتفكير بغير أن ينضبط بنصوص الشرع الشريف ، لذا ينبغي علىٰ علماء الإسلام أن يقربوا علوم الشرع للناس ، فلا يدعوا بابًا للشيطان يملي علىٰ أعوانه ما يسمونه « فِكْرًا » ، وهي أقوال غريبة عن البيئة الإسلامية ، إما لتأثرها بمناهج وفلسفات أخرىٰ ، أو لمرضاة أهواء وإشباع شهوات ، أو لتبرير معاصٍ ، أو إعطاء التحليل لانحرافات ومخالفات لنصوص الإسلام ، حتى إن الكثير منهم يدعي أنه يوافق روح الإسلام وإن خالف النصوص الشرعيّة !!! .

وهذا أخونا الحبيب الشيخ أبو الأشبال حسن الزهيري –بارك الله تعالى جهوده– يقدم الخدمة الثانية لكتاب جليل هو كتاب « **جامع بيان العلم وفضله** » . كانت الخدمة الأولىٰ بالحواشي الموضحة لدرجة الحديث المذكور أو النصوص الأخرىٰ ، ثم جاءت الخدمة الثانية لفصْل الصحيح منه وترك ما سواه تحت عنوان « **صحيح جامع بيان العلم وفضله** » .

وقد زيَّنه الشيخ – أكرمه الله تعالىٰ – بأن وضع الكثير من الفوائد التربوية في هامشه ، فزاد الكتاب جمالًا وجلالًا .

وكنت أود أن أنقل من ذلك عبارات لكنني خشيت الإطالة ، وأترك القاريء للكتاب يستمتع بين صفحاته .

إلَّا أنني مع تقديري البالغ للجهد المبذول ، وضراعتي لله ، ودعائي للشيخ الفاضل بالعون والثواب كنتُ أود أنْ لو حذف تخريجات الحديث وأحال علىٰ كتابِه الأصلي ؛ ليصبح الكتاب أصغر حجمًا فيكون أيسر في دراسته وتكلفته ، لكنني أسال الله أن يجعل ذلك الكتاب نافعًا لطلبة العلم حيث إنه من كتب التربية المفتقدة في زماننا هذا إلَّا القليل النادر ، والله يوفق الشيخ وسائر طلبة العلم للانتفاع به . والله من وراء القصد .

محمد صفوت نور الدين

✵ ترجمة الحافظ ابن عبد البر[1] ✵

✵ اسمه ونسبه وكنيته :

هو الإمام العلامة ، حافظ المغرب ، شيخ الإسلام ، علم الأعلام ، أبو عمر ، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النَّمَري ، القرطبي ، الأندلسي ، المالكي ، صاحب التصانيف الفائقة الرائقة .

والحافظ ابن عبد البر عربي أصيل ، ينتسب إلى قبيلة النمر بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان[2] .

---

(١) انظر مصادر ترجمته في :
جمهرة أنساب العرب : ٣٠٢ ، جذوة المقتبس : ٣٦٧- ٣٦٩ ، سير أعلام النبلاء : ١٥٣/١٨- ١٦٣، ترتيب المدارك ٨٠٨/٤-٨١٠، فهرسة ابن خير: ٢١٤، الصلة: ٦٧٧/٢-٦٧٩، وفيات الأعيان: ٦٦/٧-٧٢، المختصر في أخبار البشر: ١٨٧/٢-١٨٨، العبر ٣٨/٢، دول الإسلام ٢٧٣/١، المشتبه: ١١٧/١، تذكرة الحفاظ: ١١٢٨/٣-١١٣٢، تتمة المختصر: ٥٦٤/١، مرآة الجنان ٨٩/٣، البداية والنهاية: ١٠٤/١٢، الديباج المذهب: ٣٦٧/٢-٣٧٠، القاموس المحيط مادة «نمر»، روضات الجنات: ٢٣٩/٤-٢٤٠، إيضاح المكنون: ٢٦٦/٢، هدية العارفين: ٥٥٠/٢ -٥٥١ ، الرسالة المستطرفة : ١٥ ، شجرة النور : ١١٩/١ ، ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ تأليف ليث سعود جاسم ، من أعلام التربية الإسلامية – المجلد الثاني – نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج ص : ٢٩٧ -٣١٨ بقلم الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي ، بستان العارفين : ٦٩ ، بغية الملتمس : ٤٨٩ -٤٩١ ، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٢٦٠/٦ -٢٦٤ ، طبقات الحفاظ للسيوطي : ٤٣١ -٤٣٢ ، نفح الطيب : ١١٦/٢ -١٢٣ .

(٢) انظر الإنباه على قبائل الرواه ٩٧ - ٩٩ .
ومختلف القبائل ومؤتلفها لمحمد بن حبيب ١٩ .

✵ ولادتـــه :

اختُلف في السنة التي وُلِد فيها الحافظ ابن عبد البر كما اختلف أيضاً في تحديد الشهر الذي ولد فيه .

فقيل ولد سنة ٣٦٢هـ كما في البغية والجذوة ، وقيل سنة ٣٦٨هـ كما في الصلة والديباج والسير وغيرها في يوم الجمعة الخامس من شهر ربيع الآخر والإمام يخطب ، وهذا أرجح الأقوال في تحديد مولده .

وقيل ولد في شهر ربيع الأول ، وقيل في جمادى الأولى .

✵ نشأتـــه :

نشأ ابن عبد البر في مدينة قرطبة ، وكانت يومئذ عاصمة الخلافة بالأندلس ، ومدينة العلم ومهبط العلم ، ومستقر أهل السنة والجماعة . ففي هذا الأفق العلمي شبَّ الحافظ ابن عبد البر وترعرع ، وتفقه على كثير من فحول العلماء ، وروى الحديث حتى برع فيه براعةً فاق بها من تقدَّمه حتى لُقِّب « حافظ المغرب » .

وانحدر أيضًا الحافظ ابن عبد البر من أُسرة وفي بيت اشتهر بالعلم والفضل والزهد ، فهذا جدُّه محمد بن عبد البر بن عاصم النمري كان من العباد المنقطعين المعروفين بالتهجد المبرَّزين فيه كما في « التكملة » لابن الأبار (٣٧١/١) .

وقد صَحِب ولازم الزاهد الإلبيري يحيى بن مجاهد بن عوانة الفزاري المتوفى سنة ٣٦٦هـ وكان من أهل العلم والفقه ولكن العبادة والزهد كانت أغلب عليه (تاريخ ابن الفرضي ١٩٠/٢ -١٩١) .

وهذا والِدُه :

عبد الله بن محمد من فقهاء قرطبة المعروفين ، نشأ في كنف والده محمد الزاهد مما مكَّن له ذلك الاتصال بأهل العلم والأخذ عن كبارهم حتى بلغ في ذلك شأواً عظيماً .

لذا فقد نشأ الابن نشأةً طيبة ، فدرس وسمع على عدد كثير من علماء قرطبة

وشيوخها من أعلام الفقه والحديث واللغة والتاريخ والأدب ،فسرعان ما ذاع صيته ، وطار ذكره بين جميع مشاهير علماء قرطبة ، وطال عمره ، فأدرك الكبار ، وعلا سندُه ، وتكاثر عليه الطلبة ، وجمع وصنَّف ، ووثق وضعَّف ، وصارت بتصانيفه الركبان ، وخضع لعلمه علماءُ الزمان .

✵ رحلاتـه :

لم يحز الحافظ ابن عبد البر رحمه الله شرف الرحلة في طلب العلم خارج بلاده ، ولكنه تنقَّل بين أرجاء الجزيرة الأندلسية شرقاً وغرباً ، فسكن دانية وبلنسية ، وشاطبة ، وتولى قضاء أشبونة (عاصمة دولة البرتغال الآن) ، وكذلك شنترين أيام مَلِكِها ابن الأفطس .

أما إشبيلية فقد نزلها ، ولم يرقه المقام بها ، لما قوبل به من أهلها من جفوةٍ وتنكر ، فرحل مُنشداً :

تنكَّر مَنْ كُنَّا نُسَرُّ بقُربه ... وعاد زعافاً بعد ما كان سلسلا
وحق لجار لم يوافقه جاره ... ولا لاءمته الدار أن يتحولا
بليت بحمص والمقام ببلدة ... طويلاً لعمري مخلق يورث البلى
إذا هان حرٌّ عند قوم أتاهم ... ولم ينأ عنهم كان أعمى أجهلا
ولم تضرب الأمثال إلَّا لعالمٍ ... وما عوتب الإنسان إلَّا ليعقلا

وكانت إشبيلية تسمى حمصاً تشبيهاً بحمص الشام

✵ شيوخ ابن عبد البر :

لقد عاصر الحافظ ابن عبد البر كثيراً من العلماء الأعلام الذين ساهموا في بناء الحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس منهم :

١- إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي .
٢- أبا عمران موسى بن عيسى بن حاج الغنجومي .
٣- أبا الوليد الباجي سليمان بن خلف بن سعد التجيبي .

✵ أما شيوخه :

وقد تلقى الحافظ ابن عبد البر العلم على يد أكثر من مئة نفس من أساطين

العلم والمعرفة ، وجهابذة الحديث والفقه في الأندلس ، ومن أكابر هؤلاء الشيوخ الذين لازمهم الحافظ ابن عبد البر ملازمة كانت لها آثارها في شخصيته :

١ - خلف بن القاسم بن سهل بن الدباغ الأندلسي المتوفي سنة ٣٩٣هـ .

٢ - عبد الوارث بن سفيان .

٣ - عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن كبير المحدثين بالأندلس توفي سنة ٣٩٠هـ .

٤ - عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أسد الجهني ، أبو محمد .

٥ - محمد بن عبد الملك بن ضيفون الرصافي، أبو عبد الله، كان من الأعلام المشهورين .

٦ - سعيد بن نصر بن خلف الأندلسي ، أبو عثمان الحافظ .

٧ - أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي البزار ، أبو الفضل .

٨ - أحمد بن فتح الرسان .

وعن هؤلاء أكثر الحافظ ابن عبد البر الرواية في كتابنا هذا « الجامع » .

ومن جلة شيوخه أيضاً : أحمد بن عبد الملك بن هاشم ، المعروف بابن المكوي الإشبيلي . وأحمد بن سعيد ، المعروف بابن الجسور .وأحمد بن محمد المقريء الطلمنكي . وإسماعيل بن عبد الرحمن ، أبو القرشي العامري . وعبد الرحمن بن يحيى ، أبو زيد العطار . وعبد العزيز بن أحمد النحوي ، أبو الأصبغ الأخفش . وعبد الله بن محمد بن يوسف ، المعروف بابن الفرضي . ويونس بن عبد الله بن مغيث ، أبو الوليد القرطبي ، القاضي . ومحمد بن خليفة الإمام ، ويحيى بن عبد الرحمن بن وجه الجنة . ومحمد بن رشيق المُكْتِب .

✹ وأما تلاميذه :

فهم من الكثرة بمكان ، وأشهر من روى عنه :

١ - أبو علي الغسَّاني ، حسين بن محمد بن أحمد الجياني .

٢ - عبد الرحمن بن محمد بن عتاب بن محسن القرطبي .

٣ - أبو الحسن طاهر بن مفوِّز بن أحمد المعافري ، الشاطبي ، الحافظ المجوِّد .

٤ – أبو بحر سفيان بن العاص .

٥ – أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي المحدِّث ، الفقيه ، الإمام ، الوزير .

٦– أبو عبد الله الحميدي ، الحافظ ، الثبت ، الإمام ، محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي ، الأندلسي .

٧ – أبو العباس بن دِلهاث الدِّلائي .

٨ – أبو محمد بن أبي قحافة .

٩ – محمد بن فتوح الأنصاري .

١٠ – أبو داود سليمان بن أبي القاسم نجاح .

١١ – أبو عمران موسى بن أبي تليد .

١٢ – أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربي .

١٣ – أبو القاسم الحسن الهوزني .

وقد أجاز له من ديار مصر أبو الفتح بن سِيْبُخت ، صاحب البغوي ، وعبد الغني بن سعيد الحافظ . وأجاز له من الحرم أبو الفتح عبيد الله السَّقطي . وآخِر من روى عنه بالإجازة عليُّ بن عبد الله بن مَوْهب الجُذامي ، وهو الذي روي عنه هذا الكتاب « الجامع » وستأتي ترجمته إن شاء الله تعالى .

❋ مكانته العلمية وثناء العلماء عليه :

لقد نال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله الثناء من أقرانه ، ومن فحول العلماء ممن عاصره أو أتى بعده لمكانته السامية في الفهم والحفظ والإتقان ، وبما خلفه من أثر كبير في مؤلفاته فهذا :

الحميدي في « جذوة المقتبس » (٣٦٧) يقول :

«أبو عمر فقيهٌ حافظٌ مُكثِرٌ ، عالمٌ بالقراءات وبالخلاف ، وبعلوم الحديث والرجال، قديم السماع، يميل في الفقه إلى أقوال الشافعي ، لم يخرجْ من الأندلس ».

وقال أبو علي الغساني : « لم يكن أحدٌ ببلدنا في الحديث مثل قاسم بن محمد،

وأحمد بن خالد الجبَّاب .... ولم يكن ابن عبد البر بدونهما ، ولا متخلفاً عنهما ، وكان من النمر بن قاسط ، طلب وتقدَّم ، ولزم أبا عمر أحمد بن عبد الملك الفقيه ، ولزم أبا الوليد الفرضي ، ودأب في طلب الحديث ، وافتنَّ به ، وبرع براعةً فاق بها من تقدَّمه من رجال الأندلس ، وكان مع تقدُّمِهِ في علم الأثر وبصره بالفقه والمعاني له بسطةٌ كبيرة في علم النسب والأخبار » .

وقال أبو القاسم بن بشكوال في « الصلة » (٦٧٧/٢) :

« ابن عبد البر إمام عصره ، وواحد دهره » .

وقال أبو الوليد الباجي :

« لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر بن عبد البر في الحديث ، وهو أحفظ أهل المغرب » .

وقال ابنُ حزم :

« لاأعلم في الكلام على فقه الحديث مثلَه فكيف أحسن منه ؟ » . (الصلة ٦٧٨/٢) .

وقيل : إن أبا عمر كان ينبسط إلى أبي محمد بن حزم ، ويؤانسُهُ ، وعنه أخذ ابن حزم فن الحديث .

وقال أبو عبد الله بنُ أبي الفتح :

« كان أبو عمر أعلم منْ بالأندلس في السنن والآثار واختلاف علماء الأمصار » .

وقال الذهبي في « السير » (١٥٧/١٨) :

« كان إماماً ديِّناً ، ثقة ، متقناً ، علامة ، متبحراً ، صاحب سنة واتباع ، وكان أولاً أثريّاً ظاهريّاً فيما قيل ، ثم تحوَّل مالكيّاً مع ميل بيِّن إلى فقه الشافعي في مسائل ، ولا يُنكر له ذلك ، فإنه ممن بلغ رتبة الأئمة المجتهدين ، ومن نظر في مُصنَّفاته بان له منزلتُه من سعة العلم ، وقوة الفهم ، وسيلان الذهن ، وكلُّ أحدٍ يُؤخذ من قوله ويُترك إلَّا رسول الله ﷺ ، ولكن إذا أخطأ إمامٌ في اجتهاده ، لا ينبغي لنا أن ننسى محاسنه ، ونغطي معارفه ، بل نستغفر له ، ونعتذر عنه » .

وقال في ص ١٥٩ :

« كان حافظ المغرب في زمانه » .

وقال ابن فرحون في « الديباج المذهب » (٣٥٧) :

« ابن عبد البر شيخ علماء الأندلس ، وكبير محدثيها ، وأحفظ من كان فيها لسُنَّةٍ مأثورة ، سادَ أهل الزمان في الحفظ والإتقان » .

وقال الفتح بن خاقان في « مطمح الأنفس » ص ٣٦٧- ٣٦٩ من مجلة « المورد » البغدادية ، المجلد العاشر :

« ابن عبد البر إمام الأندلس وعالمها الذي التاحت به معالمها ، صحَّح المتن والسند ، وميز المرسل من المسند ، وفرَّق بين الموصول والمنقطع ، وكسا الملة منه نور ساطع ، حصر الرواة ، وأحصى الضعفاء منهم والثقات ، جدَّ في تصحيح السقيم ، وجدَّد منه ما كان كالكهف ، مع التنبيه والتوقيف ، والإتقان والتثقيف ، وشرح المقفل واستدراك المغفل ، له فنون هي للشريعة رتاج ، وفي مفرق الملة تاج ، كان ثقة ، والأنفس على تفضيله متفقة ، أما أدبه فلا تعبر لجته ، ولا تدحض حجته ، له من الصفات والمزايا ما يجعله أحد الأئمة الأعلام » .

وقال ابن العماد في « الشذرات » (٣/٣١٥) :

« ليس لأهل المغرب أحفظ منه ، مع الثقة والدين والنزاهة ، والتبحر في الفقه والعربية والأخبار » .

وقال ابن خلكان :

« أبو عمر بن عبد البر إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما » .

وقال صاحب « المعرب في حلي المغرب » (٢/٤٠٧ ، ٤٠٨) :

« الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري إمام الأندلس في علم الشريعة ورواية الحديث ، وفاضلها الذي حاز قصب السبق ... انظر إلى آثاره تغنيك عن أخباره » .

تلك بعض أقاويل بعض أساطين العلم وأهل الفضل في الحافظ ابن عبد البر

رحمه الله تعالى .

هذا ولم يكن يقصده طلبة العلم فقط ، بل قصده الأمراء والوزراء ، فهذا[1] مجاهد العامري أمير دانية كان يسمع عليه في مجالسه العلمية ، وينال ابن عبد البر منه كل تقدير واحترام ، وهذا المعتضد[2] قد وجه إليه رسالة بخط ابنه عبد الله الذي كان يشغل منصب الوزراء عنده يقول له فيها :

« إن كُنَّا لم نتعارف ترائياً ، ولم نتلاقَ تدانياً ، ففضلك في كلِّ قطر كالمشاهد ، وشخصك في كل نفسٍ غير متباعد ، فأنت واحد عصرك ، وقريعُ دهرك ، عَلَماً بيدك لواؤُه ، وكنت كذلك والناس موفورون ، والشيوخ أحياء يرزقون[3] ، فكيف وقد درس الأعلام والكُدىٰ ، وانتزع العلم بقبض العلماء فانقضىٰ[4] .. ولم تزل نفسي إليك جانحة ، وعيني نحوك طامحة ، انجذاباً إلى العلم ورغبة فيه » .



(١) انظر التكملة ، القسم الثالث مخطوط .
(٢) الذخيرة : ١٣٤/٣ط إحسان عباس .
(٣) قلت : هكذا يجب أن يتخلّق جميع الناس خاصة الحكام والسلاطين مع العلماء ؛ فإن كان السلطان فوق الناس فالعلماء فوق السلاطين .
(٤) قلت : بل كيف بحبس العلماء ، وتشريدهم ، ونفيهم بعيداً عن أوطانهم ، وسبّهم ، وشتمهم ، وتكميم أفواههم ، بل وقتلهم ، فإلىٰ الله المشتكىٰ من غربة هذا الزمان .

❋ عقيدة الحافظ ابن عبد البر ومنحاه في الفروع ❋

❋ أما عقيدته :

فقال الحافظ الذهبي : « كان إماماً ديِّناً ، ثقةً ، متقناً ، متبحراً ، صاحب سنة واتباع ... وكان في أصول الديانة على مذهب السلف ، لم يدخل في علم الكلام ، بل قفا آثار مشايخه رحمهم الله » .

❋ وأما مذهبه الفقهي :

فقال الحميدي : « ... يميل في الفقه إلى أقوال الشافعي » .

وقال الذهبي : « وكان أولاً أثرياً ظاهرياً فيما قيل ، ثم تحوَّل مالكيّاً مع ميل بيِّنٍ إلي فقه الشافعي في مسائل ، ولا يُنكر له ذلك ، فإنه ممن بلغ رتبة الأئمة المجتهدين » .

وقال أبو عبد الله بن أبي الفتح :

« كان في أول زمانه ظاهريَّ المذهب مُدةً طويلة ، ثم رجع إلى القول بالقياس من غير تقليد أحد ، إلَّا أنه كان كثيراً ما يَميلُ إلى مذهب الشافعي » . فعلَّق الذهبي على هذا بقوله :

« كذا قال ، وإنما المعروف أنه مالكي » .

❋ ❋ ❋

❋ مُصَنَّفاته وآثارُه ❋

قال أبو القاسم بن بشكوال في « الصلة » :

« كان موفقاً في التأليف ، معاناً عليه ، ونفع الله بتواليفه ... » .

وكان ابن عبد البر مالكاً للقدرة على التأليف والتصنيف حتى بلغ حد البراعة كما قال عنه تلميذه وخريجه ابن حزم الأندلسي : « ولصاحبنا ابن عبد البر كتب لا مثيل لها » ، كما وصفت مؤلفاته بأنها « تيجان رؤوس العظماء ، وأسوة العلم والعلماء » .

وقال أبو طاهر :

« ... وبالجملة فالرجل جليل القدر واسع العلم ، وكتبه متعددة كثيرة ، وقد قلتُ فيها لحسنها وكثرة فوائدها :

يا مَنْ يُسافر في الحديث مُشرِّقاً
ومغرّباً في البحر بعد البرِّ

ما أن يرى أبداً لكتب صاغها
بالغرب حافظها ابن عبد البر» .

قلتُ : نعم ، كتبه متعددة كثيرة ، فقد صنَّف في كل فن كتباً لم يسبَق لمثلها ، فصنف في القراءات والحديث والفقه والتاريخ والأدب والشعر وغير ذلك .

❋ أولاً : مصنفاته في القراءات .

١ – المدخل في القراءات .

٢ – الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو بن العلاء .

٣ – التجويد والمدخل إلى علم القرآن بالتحديد .

٤ – البيان في تلاوة القرآن .

٥ – البيان في تأويلات القرآن ، إن لم يكن هو الذي قبله فتصحف على الناسخ فهو غيره ، وجميع هذه المصنفات في فن القراءات لم ير النور بعد .

* ثانيًا : مصنفاته في الحديث .

١ – التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد .

٢ – التقصي لحديث الموطأ وشيوخ مالك ، وهو تجريد لما شرحه في التمهيد ولذا يسمى « تجريد التمهيد ».

٣ – الاستذكار في شرح مذاهب علماء الأمصار مما رسمه مالك في موطئه من الرأي والآثار .

٤ – الزيادات التي لم تقع في الموطأ عند يحيى بن يحيى عن مالك ، ورواه غيره في الموطأ .

وجميع هذه المصنفات مطبوع والحمد لله .

أما ما صنفه في الحديث ولا يزال مخطوطاً أو في حكم المفقود فهو :

١ – الأجوبة الموعبة في المسائل المستغربة في كتاب البخاري .

٢ – الاستظهار في طرق حديث عمار .

٣ – اختصار كتاب التحرير .

٤ – اختصار كتاب التمييز .

٥ – التغطا بحديث الموطا .

٦ – حديث مالك خارج الموطأ .

٧ – الشواهد في إثبات خبر الواحد .

٨ – عوالي ابن عبد البر في الحديث .

٩ – وصل ما في الموطأ من المرسل والمنقطع والمعضل .

١٠ – منظومة في السنة .

١١ – مسند ابن عبد البر .

✹ ثالثًا : مصنفاته في الفقه .

١ – الكافي في فروع المالكية .

٢ – الإنصاف فيما بين المختلفين في فاتحة الكتاب من الاختلاف . وكلاهما مطبوع .

وأما المخطوط :

١ – اختلاف أصحاب مالك بن أنس واختلاف روايتهم عنه .

٢ – الإشراف على ما في أصول الفرائض من الإجماع والاختلاف .

٣ – جوائز السلطان .

✹ رابعاً : مصنفاته في التاريخ والسير .

١ – الاستيعاب في معرفة الأصحاب .

٢ – الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء .

٣ – الإنباه على قبائل الرواه .

٤ – الدرر في اختصار المغازي والسير .

٥ – القصد والأمم في معرفة أنساب العرب والعجم . وكلها مطبوعة ، وأما المخطوط في هذا الباب :

١ – الاستغناء في أسماء المشهورين من حملة العلم بالكنى .

٢ – ترجمة الإمام مالك بن أنس .

٣ – التعريف بجماعة من فقهاء المالكية .

٤ – أخبار أئمة الأمصار .

٥ – أخبار القاضي منذر بن سعيد البلُّوطي .

٦ – اختصار تاريخ أحمد بن سعيد بن حزم الصدفي .

٧ – تاريخ شيوخ ابن عبد البر .

٨ – كتاب في أخبار القضاة .

٩ - تواليف أبي عمر بن عبد البر وجمع رواياته عن شيوخه .
١٠ - فهرسة الحافظ ابن عبد البر .
١١ - الذب عن عكرمة البربري .
١٢ - محن العلماء .
١٣ - المغازي .

* خامساً : مصنفاته في العقيدة .

١ - أعلام النبوة .
٢ - الإنصاف في أسماء الله .
وكلاهما في حكم المفقود .

* سادساً : مصنفاته في الأدب والأخلاق وفنون التربية :

١ - بهجة المجالس وأُنسْ المجالس وشحذ الذاهن والهاجس .
٢ - أدب المجالسة وحمد اللسان .
٣ - الجامع .

وهو رسالة صغيرة في الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية ألحقها بكتابه الكافي في الفقه .

٤ - جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي من روايته وحمله .
وهو كتابنا هذا ، وسيأتي الكلام عنه إن شاء الله قريباً .

وما تقدم ذكره فهو مطبوع ، وأما المخطوط :
١ - الاهتبال بما في شعر أبي العتاهية من الحكم والأمثال .
٢ - الأمثال السائرة والأبيات النادرة .
٣ - مختارات من الشعر والنثر .
٤ - نزهة المستمتعين وروض الخائفين .
٥ - البستان في الإخوان .
٦ - الرقائق .

٧ – العقل والعقلاء وماجاء في أوصافهم عن العلماء والحكماء .

هذا وقد استفدت ذكر هذه المصنفات من رسالة « ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ » للأستاذ ليث سعود جاسم جزاه الله عني خير الجزاء .

✸ وفاتــه .

أدركته منيته في مدينة شاطبة وبها دفن في ليلة الجمعة سلخ ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، عن خمس وتسعين سنة وخمسة أيام رحمه الله تعالى ورضي عنه .

✸ ✸ ✸

✵ « أهمية الكتاب ، ومنهج الحافظ ابن عبد البر ✵ في التربية من خلاله »

موضوع هذا الكتاب يدل عليه عنوانه ، فقد ضمَّنه الحافظ ابن عبد البر بحوثاً عن العلم وفضله ، وآداب العالم والمتعلم ، وما يلزم الناظر في اختلاف العلماء من الإحاطة بمذاهب علماء الأمصار ، ويُبيِّن فيه كذلك المراحل التي يمر بها طالب العلم ، والعلوم الأساسية التي يجب أن يلم بها مِنْ فهمٍ لكتاب الله ، ومعرفة بالسنة النبوية ، واللغة ، وحث الطالب على الاطلاع على العلوم المُكملة لثقافته مثل الجغرافية ، والطب ، وعلم الحساب والترجمة وغير ذلك .

ثم رسم منهجاً تعليمياً لمن أراد أن يكون مجتهداً ، فأرشده إلى التوسع في الحفظ للسنن ، والإحاطة بأصول المذاهب الإسلامية المختلفة ، والأدلة التي قامت عليها ليتسنى له النظر فيها والترجيح بينها .

ولم يَفُتْه أن يرسم في سلك طريق العلم والعلماء أدب المناظرة ، والزاوية التي ينظر منها إلى الخلاف بين العلماء والتأدب في نقدهم ، وتوجيه كلام بعضهم في بعض .

وهو بذلك يُعدُّ منهجاً تربوياً متكاملاً لتكوين الطالب والعالم .

وقد حشد الحافظ ابن عبد البر في كتابه هذا« الجامع » مادة أصيلة منوعة يغلب عليه فيها النقل في كثير من أبواب الكتاب ، ملتزماً في نقله للأخبار والأشعار

بالرواية على طريقة المحدِّثين ، ولكنه مع هذا كان يقف في بعض المواضع ناقداً ومحلِّلاً وموضحاً ومستخلصاً للقواعد العامة من النصوص ، ويحيل فيه إلى كتبه الأخرى[1] .

فالكتاب في الآداب الشرعية والتاريخ فهو يشتمل في تضاعيفه على ما يناهز ٣٠٠ ترجمة لبعض الشعراء والأدباء والفقهاء[2] .

وابن عبد البر محدِّث فقيه ، لذلك ظهرت اهتماماته التربوية في الغالب على شكل حقائق وأحكام فقهية مدعومة بالأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وهذا ما يلزم كل باحث مخلص في هذا العصر للتربية الإسلامية ، ليجعل منه أساساً متيناً ، ومادةً صحيحة لحقائق هذه التربية ، والكشف عن منهج تربوي إسلامي متكامل بأسسه وأهدافه وأساليبه ومبادئه مشتق من القرآن والسنة[3] .

ولقد حاول الحافظ ابن عبد البر في هذا الكتاب « الجامع » إثبات نظريته التربوية من خلال عدة مبادىء تأتي حسب ترتيبنا إن شاء الله تعالى .

أولاً : بعض مبادىء التربية عند الحافظ ابن عبد البر .

ثانياً : الآداب والأخلاق التي يجب أن يتحلى بها العالم والمتعلم .

ثالثاً : أصول العلم ، وحقيقته ، وتقسيم العلوم .

أولاً : بعض مبادىء التربية عند الحافظ ابن عبد البر .

١ - مبدأ وجوب التعليم وتحريم كتمان العلم .

قال الحافظ ابن عبد البر في تمام مقدمته التي أجاب فيها السائل : (... وسارعت فيما طلبت رجاء عظيم الثواب وطمعاً في الزلفى يوم المآب ، ولما أخذه الله عز وجل على المسؤول العالم بما سئل عنه من بيان ماطُلب منه ، وترك الكتمان لما علمه .

---

(١) ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ : ص ٢٣٠ .

(٢) انظر مقدمة أدب المجالسة ص ١٩ .

(٣) انظر : من أعلام التربية العربية الإسلامية/ المجلد الثاني ، ابن عبد البر واهتماماته التربوية والفكرية للأستاذ عبد الرحمن النحلاوي ص ٢٩٩ - ٣١٨ ، ومنه استفدنا هذه المادة .

قال الله عز وجل : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه** ﴾ [آل عمران : ١٨٧] .

وقال ﷺ : « **من سئل علماً علمه ، فكتمه ، جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار** » . حديث صحيح . وعلى هذا المبدأ سار العمل من عصر الصحابة رضي الله عنهم إلى يومنا هذا ، ولا سيما في عصور النهضة والازدهار .

٢ - مبدأ وجوب طلب العلم (وجوب التَّعلُّم) .

قال ابن عبد البر : باب قوله ﷺ : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » وهكذا جعل لفظ الحديث عنواناً للباب .

ثم ساق بسنده إلى إسحاق بن راهويه قوله : « طلب العلم واجب ، ولم يصح فيه الخبر[١] إلَّا أن معناه أن يلزمه طلب علم ما يحتاج إليه من وضوئه وصلاته وزكاته إن كان له مال ، وكذلك الحج وغيره ، قال : وما وجب عليه من ذلك لم يستأذن أبويه في الخروج إليه » .

ثم وافق ابن عبد البر إسحاق بن راهويه فقال : (قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعيَّن على كل امريءِ في خاصة نفسه ، من ذلك ما لا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترضة عليه نحو الشهادة باللسان والإقرار بالقلب بأن الله وحده لا شريك له ، والشهادة بأن محمداً عبده ورسوله ، وخاتم أنبيائه حق ، وأن البعث بعد الموت للمجازاة بالأعمال ، والخلود في الآخرة لأهل السعادة بالإيمان والطاعة في الجنة ولأهل الشقاوة والكفر والجحود في السعير ، وأن القرآن كلام الله وما فيه حق من عند الله ، يجب الإيمان بجميعه ، واستعمال محكمه ، وأن الصلوات الخمس فريضة، ويلزمه من علمها علم ما لاتتم إلا به من طهارتها وسائر أحكامها . وأن صوم رمضان فرض ، ويلزمه علم ما يفسد صومه وما لا يتم إلاَّ به ، وإن كان ذا مالٍ ، وقدرة على الحج لزمه فرضاً أن يعرف ما تجب فيه الزكاة ، ومتى تجب ، وفي كم تجب ، ويلزمه أن يعرف بأن الحج عليه فرضٌ مرة واحدة في دهره إن استطاع إليه سبيلاً .. إلى أشياء يلزمه معرفة جملها ولا يعذر بجهلها ، نحو تحريم الزنا والربا ، وتحريم

(١) قلت : بل صحَّ الخبر بذلك فانظره في الباب .

الخمر والخنزير، وأكل الميتة ، والأنجاس كلها ، والغصب ، والرشوة على الحكم ، والشهادة بالزور ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وتحريم الظلم كله ، وتحريم نكاح الأمهات والأخوات ومن ذكر معهن ، وتحريم قتل النفس) .

وقد ساق العديد من الأحاديث في وجوب طلب العلم وفضله ، ومن أقوال السلف في الحث على طلب العلم في مواطن من كتابه .

وهكذا سبق علماؤنا إلى تحقيق « إلزاميَّة التعليم » وهو ما تحاول التربية الحديثة تحقيقه اليوم ، لكن علماؤنا قرروا مبدأهم على كل المستويات والأعمار ، فلم يخلُ مسلم ولا مسلمة من تعلم مبادىء الإسلام ، وبعض آيات القرآن الكريم والحقوق والواجبات ، والآداب الإسلامية والعقيدة وأركان الإيمان والإسلام ، وأصبح كل فردٍ في الأمة على جانب من معرفته بدينه .

٣- العمل بالعلم .

عقد الإمام ابن عبد البر أكثر من باب لهذا المبدأ وأورد تحت كل باب الأحاديث والآثار التي تحث على العمل بالعلم أو تحذر وتتوعَّد من فرَّق بين العلم والعمل بسلوكه فترجم :

« باب ماجاء في مساءلة الله عز وجل العلماء يوم القيامة عما عملوا فيما علموا » .

« باب جامع القول في العمل بالعلم » .

« باب ذم العالِم على مداخلة السلطان الظالم » وقد صرَّح ابن عبد البر في آخر هذا الباب بقوله :

« قد ذم الله في كتابه قوماً كانوا يأمرون الناس بأعمال البر ولا يعملون بها ذمّاً ، ووبَّخهم الله به توبيخاً يُتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** ﴾ [البقرة : ٤٤] » .

وساق – في هذا المعنى– أبياتاً من الشعر ، كما ساق حوادث واقعية وأخبار مؤثرة ، كلها تدل على أن هذا المبدأ التربوي راسخ في نفوس جمهور علماء الأمة وعامتها وأمرائها وحكامها منذ عهد الرسول ﷺ إلى زمن الإمام ابن عبد البر ، وأنه يأخذ بهذا المبدأ ، ويذكره في كتابه ليعمل الناس به ويتعظوا ، وأن سعادة الأمة في الدنيا والآخرة لا تتحقق إلَّا بتحقق هذا المبدأ .

٤– الإخلاص لله في طلب العلم ، وإرادة الخير به .

بوَّب ابن عبد البر له بيابٍ سماه (باب ذم الفاجر من العلماء ، وذم طلب العلم للمباهاة والدنيا) .

وقد أورد تحته عدة أحاديث وآثار منها :

« لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ، ولا تماروا به السفهاء ، ولا لتحتازوا به المجالس ، فمن فعل ذلك فالنار النار ».

قال ابن عبد البر : وهذا الوعيد لمن لم يرد بعلمه شيئاً من الخير ، ولا يقصد به إلَّا الدنيا .

وقال سفيان الثوري : (إنما يطلب الحديث ليُتقىٰ به الله عز وجل ، فذلك فضله على غيره من العلوم) .

وقال حماد بن سلمة : (من طلب الحديث لغير الله مُكِر به) .

وقال إبراهيم التيمي : (من طلب العلم لله عز وجل آتاه الله منه ما يكفيه) .

وهكذا جعل علماؤنا أول منازل العلم ومراتبه النية الصالحة الخالصة لله عز وجل ، وإلَّا لم يكن علمه صحيحاً سليماً ، وقد بوَّب ابن عبد البر لذلك (باب منازل العلم) فروىٰ فيه عن ابن المبارك قوله :

« أول العلم النية »[1].

---

(١) قلت : هكذا يجب أن تكون النية في الطلب ، وذلك بخلاف ما نحن عليه اليوم– وما أبرىء نفسي– يُقبل الطالب على التعلُّم ليتصدَّر ، أو ليشار إليه بالبنان ، أو لنيل حطام ، أو ليقال : عالِم ما شاء الله !

وكأني بالخطيب البغدادي رحمه الله– وهو قرين ابن عبد البر– يقول في كتابه القيم (شرف أصحاب الحديث) : =

٥ - مجَّانية التِّعليم .

روى ابن عبد البر بسنده إلى أبي العالية قال :« مكتوب عندهم في الكتاب الأول : ابن آدم علِّم مجاناً كما عُلِّمتَ مجاناً » .

قال أبو عمر : معناه عندهم : كما لم تغرم ثمناً ، فلا تأخذ ثمناً والمجان عندهم الذي لا يأخذ ثمناً .

وهكذا عرف علماؤنا هذا المبدأ « مجانية التعليم » منذ القديم ، ودعوا إليه ، وهو ما ينادي به الآن التربويون لرفع الجهل ومحو الأمية .

= « ... ولكل علمٍ طريقة ينبغي لأهله أن يسلكوها ، وآلات يجب عليهم أن يأخذوا بها ويستعملوها ، وقد رأيت خلقاً من أهل هذا الزمان ينتسبون إلى الحديث ، ويعدون أنفسهم من أهله المتخصصين بسماعه ونقله ، وهم أبعد الناس مما يدعون ، وأقلهم معرفة بما إليه ينتسبون ، يرىٰ الواحد منهم إذا كتب عدداً قليلاً من الأجزاء ، واشتغل بالسماع برهة يسيرة من الدهر ، أنه صاحب حديث علىٰ الإطلاق ، ولمَّا يجهد نفسه ويتعبها في طِلابه ، ولا لحقته مشقة الحفظ لصنوفه وأبوابه ، وهم مع قلَّة كَتْبهم له ، وعدم معرفتهم به أعظمُ الناس كبْراً ، وأشد الخلق تيهاً وعُجباً ، لا يراعون لشيخ حُرمة ، ولا يوجبون لطالبِ ذمة ، يخرُقون (يجهلون بحقيقة الرواة) بالرَّاوين ، ويُعنِّفون علىٰ المتعلِّمين ، خلاف ما يقتضيه العلم الذي سمعوه ، وضدَّ الواجب مما يلزمهم أن يفعلوه »(١).

قال محمد بن العباس النسائي : «سألتُ أحمد بن محمد بن حنبل عن الرجل يكون معه مائة ألف حديث ، يُقالُ إنه صاحب حديث ؟ قال : لا ، قلتُ له : عنده مائتا ألف حديث ، يقال إنه صاحب حديث ؟ قال : لا ، قلت له : ثلاثمائة ألف حديث ؟ فقال بيده كذا : يروِّح يمنة ويسرة » .

ثم يتوجه الخطيب - رحمه الله تعالىٰ - بالنصيحة الخالصة لطلبة العلم عامة ، وطلبة الحديث خاصة فيقول :

والواجب أن يكون طلبة الحديث أكمل الناس أدباً ، وأشد الخلق تواضعاً ، وأعظمهم تديُّناً ونزاهة ، وأقلُّهم طيشاً وغضباً ، لدوام قرع أسماعهم بالأخبار المشتملة على محاسن أخلاق رسول الله ﷺ وآدابه ، وسيرة السلف الأخيار من أهل بيته وأصحابه ، وطرائق المحدثين ، ومآثر الماضين ، فيأخذوا بأجملها وأحسنها ، ويصدفوا عن أرذلها وأدونها » .

---

(١) قلت : إن كان الحافظ الخطيب البغدادي رأىٰ هؤلاء القوم في زمانه - القرن الخامس الهجري - وهم أهل العلم والفضل ، فماذا لو رآنا نحن اليوم ، وما نحن فيه من الجهْل ، وقلة العلم ، وكثرة العُجب ، وادعاء المشيخة ؟ ماذا لو رأىٰ أحدنا وهو يُسأل في مسألة ، فيجيب فيها بسلاسة غريبية عجيبة ، وما عنده فيها من دليل ولا شبه دليل غير الذوق والوجد ؟ ماذا لو رآنا ونحن نأبىٰ أن نمشى إلَّا والناس وراءنا ؟ ماذا لو رآنا ونحن نجلس متكئين على الأرائك وكلنا عجب وفخر ماذا لو رآنا وما منا أحدٌ يرحل إلَّا ليقال رحل ؟ ماذا ؟ ماذا ! ماذا ؟ ,...

٦- نشر العلم وتبليغه .

بوَّب الحافظ ابن عبد البر لهذا المبدأ باباً سمَّاه (باب دعاء رسول الله ﷺ لمستمع العلم وحافظه ومبلغه ، وذكر فيه الحديث :« **نضَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً ، فحفظه حتي يبلغه غيره ، فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه** » وحديث : « **تَسْمَعون ويُسْمع منكم ، ويُسمع ممن يَسمع منكم** » ، ثم قال الحافظ :

« وفي هذا الحديث أيضاً دليل على تبليغ العلم ونشره » وأن التبليغ والنشر مقصد نبوي قائم بذاته غير مقصد الفهم والعمل والتفقه بمعنى الحديث ، دلَّ على ذلك قوله : « **فرب حامل فقه ليس بفقيه** ... » الحديث .

٧- الأمانة العلمية والصدق في نقل العلم .

ضمَّن هذا المبدأ في « باب آفة العلم وغائلته وإضاعته » حيث ذكر فيه عدداً من الآثار عن التابعين كالزهري الذي قال : « ... ومن غوائله الكذب فيه ، وهو شر غوائله » .

وقول علي بن ثابت :

العلـم آفتـه الإعجـاب والغضـب

والمـال آفتـه التبذيـر والنهـب

٨- إصلاح اللَّحن والخطأ .

بوَّب لذلك بعنوان : « باب الأمر بإصلاح اللحن والخطأ في الحديث ، وتتبع ألفاظه ومعانيه » .

ثم ساق بسنده إلى محمد بن سيرين : « كان أنس بن مالك إذا حدَّث عن رسول الله ﷺ حديثاً ففرغ منه قال : أو كما قال رسول الله ﷺ » .

وقال الأوزاعي :

« أعربوا الحديث ، فإن القوم لم يكونوا عرباً » .

ومعنى : أعربوا ،أي حرِّكوا أواخر حروفه .

وعن أبي الدرداء أنه كان إذا حدَّث عن رسول الله ﷺ ثم فرغ منه قال : « اللهم إن لم يكن هذا فَكَشَكْلِهِ » .

✹ ثانياً : من آداب طلب العلم :

ذكر ابن عبد البر آداباً كثيرة لطلب العلم متناثرة في أبواب من كتابه نذكر منها :

ـ ١- التواضع وترك الدعوى والفخر :

قال أبو عمر يوسف بن عبد البر رحمه الله : « ومن أدب العالم ترك الدعوى لما لا يحسنه ، وترك الفخر بما يحسنه ، إلا أن يضطر إلى ذلك كما اضطر يوسف عليه السلام حين قال : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ وذلك أنه لم يكن بحضرته من يعرف حقه فيثني عليه بما هو فيه ، ويعطيه بقسطه ، ورأى أنه ذلك المقعد لا يقعده غيره من أهل وقته إلا قصر عما يجب لله من القيام به من حقوقه ، فلم يسعه إلا السعي في ظهور الحق بما أمكنه ، فإذا كان ذلك فجائز للعالم حينئذ الثناء علىٰ نفسه ، والتنبيه فى موضعه ، فيكون حينئذ يحدث بنعمة ربه عنده على وجه الشكر لها ...

وأفضح ما يكون للمرء دعواه بما لا يقوم به ، وقد عاب العلماء ذلك قديماً وحديثاً » .

فهذان أدبان من آداب طلب العلم يتلوهما أدب ثالث عند الضرورة فتكون ثلاثة :

(أ) أن يترك العالم الدعوىٰ لما لا يحسنه ، لئلا يفتضح أمره ، ويرتكب ما عابه العلماء .

(ب) أن يترك الفخر بما يحسنه لأن ذلك ينقص من قدره ، فالتواضع خير له وأبقى لمكانته وهيبته .

(جـ) يجوز للعالم الثناء على نفسه بما هو فيه عند الاضطرار ، إذا لم يوجد من يقوم مقامه فيما يثني به على نفسه من أمر التعليم لئلا تضيع حقوق المتعلمين .

وقد أفرد للتواضع فصلاً بعنوان : « فصل في مدح التواضع وذم العجب وطلب الرياسة » ذكر فيه حديث (.. وما تواضع أحد إلا رفعه الله) ثم أورد كلام أيوب السختياني :(ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعاً لله) .

٢- الترحيب بالأحداث وتعليمهم والتلطف بهم :

وقد أفرد فصلاً لهذا الأدب من آداب المعلِّمين فدل على اهتمام ابن عبد البر به ، قال : « فصل : وروينا عن أبي هارون وشهر بن حوشب قالا : كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدري يقول : مرحباً بوصية رسول الله ﷺ » . قال رسول الله ﷺ : « **ستفتح لكم الأرض ، ويأتيكم قوم** – أو قال : **غلمان – حديثة أسنانهم يطلبون العلم ويتفقهون في الدين ويتعلمون منكم ، فإذا جاءوكم فعلموهم والطفوا بهم ، ووسعوا لهم في المجلس ، وأفهموهم الحديث** » (قالا) أبو سعيد يقول لنا : مرحباً بوصية رسول الله ﷺ ، أمرنا رسول الله ﷺ أن نوسِّعَ لكم في المجلس ، وأن نفهمكم الحديث .

ويستنبط من هذا :

(أ) بذل عناية خاصة بالأحداث والتلطف بهم إذا طلبوا العلم .

(ب) الترحيب بالوافدين من بلاد أخرى لطلب العلم ، وتعليمهم .

(جـ) التوسيع في المجلس لطالب العلم وللوافدين الراحلين لطلب العلم .

(د) إفهام المتعلم ما يريد تعلمه وعدم الاقتصار على الاستحفاظ ، بدليل لفظه (وأفهموهم الحديث) .

٣- احترام العالم والتأدب بحضرته :

قال ابن عبد البر : ويروى عن علي بن أبي طالب أنه قال : من حق العالم عليك :

(أ) إذا أتيته أن تسلم عليه خاصة وعلى القوم عامة .
(ب) وتجلس قدَّامه (بأدب) لا تغمز بعينيك ولا تشر بيديك .
(جـ) ولا تأخذ بثوبه ولا تلح عليه في السؤال .
(د) ولا تقل : فلان قال خلاف قولك .
(هـ) وأن تجله .

قال أيوب بن القرية: «أحق الناس بالإجلال ثلاثة : العلماء والإخوان والسلاطين».

٤ - ومن آداب العالم والمعلِّم :

قال ابن عبد البر : وقالوا : من تمام آلة العالم :

(أ) أن يكون مهيباً وقوراً بطيء الالتفات قليل الإشارة ، لا يصخب .
(ب) ولا يلعب ولا يجفو ولا يلغو .
(جـ) ويكفيه أن يتأدب بأدب الإسلام ثم يفعل ما يشاء لقول ابن عبد البر : بلغني أن إسماعيل بن إسحاق قيل له : لو ألفت كتاباً في آداب القضاء . فقال : وهل للقاضي أدب غير أدب الإسلام ؟ .

(د) والواجب على العالم ألا يناظر جاهلاً ولا لجوجاً ، فإنه يجعل المناظرة ذريعة إلى التعلم بغير شكر .

(هـ) ومن آداب العالم حسن السَّمْت وقلة الكلام ، قال ابن عبد البر : « وأحسن ما رأيت في آداب التعلم والتفقه من النظم ما ينسب إلى اللؤلؤ من الرجز ، وبعضهم ينسبه إلى المأمون (ثم ذكر الأرجوزة) ومنها :

والأدب النافع حسن السمت ... وفي كثير القول بعض المقت

(و) والسكوت عما لا يعلم وعدم الاستعجال بالإجابة لقول الراجز في الأرجوزة السابقة :

فكن لحسن الصمت ماحيينا ... مقارفا تحمد ما بقينا
فكم رأيت من عجول سابق ... من غير فهم بالخطأ ناطق

(ز) والاعتراف بجهل مسألة إذا سئل عنها وكان لا يعرفها ، وقد عقد ابن

عبد البر باباً لهذا بعنوان :(باب ما يلزم العالم إذا سئل فيه عما لا يدريه من وجوب العلم) بدأه بحديث ابن عمر سئل فيه الرسول ﷺ : أي البقاع خير ؟ فقال : لا أدري حتى أخبره جبريل عن الله :« إن خير البقاع المساجد » .

(حـ) وألا يجيب حتى يفهم جيداً سؤال السائل ، قال ابن عبد البر :« أوصى يحيى بن خالد ابنه جعفراً فقال : لا ترد على أحد جواباً حتى تفهم كلامه ، فإن ذلك يصرفك عن جواب كلامه إلى غيره . ويؤكد الجهل عليك ، ولكن افهم عنه ، فإذا فهمته فأجبه ولا تعجل بالجواب قبل الاستفهام ، ولا تستح أن تستفهم إذا لم تفهم فإن الجواب قبل الفهم حُمْق » .

(ط) أن يضع علمه حيث يعلم أنه ينفع :

وفي هذا يروي ابن عبد البر بسنده عن شعبة قال : رآني الأعمش وأنا أُحدِّث قوماً فقال : ويحك يا شعبة ، تعلق اللؤلؤ في أعناق الخنازير ؟!

وروى بسنده عن خالد بن يزيد بن عبد الله بن المختار قال : (نكر الحديث الكذب فيه ، وآفته النسيان ، وإضاعته أن تحدث به من ليس من أهله) .

وعن رؤبة بن العجاج قال : أتيت النسابة البكري . فقال لي: (.. لعلك من قوم أنا بين أظهرهم إن سَكَتُّ لم يسألوني وإن تكلمتُ لم يَعُوا عني ؟) قلت : أرجو ألا أكون منهم ... ثم قال لي : « يا رؤبة : إن للعلم آفة وهجنة ونكراً . فآفته نسيانه ، وهجنته أن تضعه عند غير أهله ، ونكره الكذب فيه » .

وقد روى جزءاً من هذا الأثر مرفوعاً بسنده .. حدثنا الأعمش قال : قال رسول الله ﷺ «آفة العلم النسيان، وإضاعته أن تحدث به غير أهله». وسنده ضعيف.

ورويَ عن الحجاج بن أرطاة قال: قال عكرمة: إن لهذا العلم ثمناً، قيل: وما ثمنه ؟ قال : (أن تضعه عند من يحفظه ولا يضيعه) .

✵ ثالثاً : أصول العلم وحقيقته وتقسيم العلوم :

عقد ابن عبد البر لهذا باباً بعنوان : « باب معرفة أصول العلم وحقيقته ، وما

الذي يقع عليه اسم الفقه والعلم مطلقاً » .

١ - أصول العلم :

ويقابلها ما يسمى في عصرنا (مصادر المعرفة) .

وقد نقل في هذا الباب عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنها أربعة كما قال الإمام الشافعي : (ليس لأحد أن يقول في شيء حلال ولا حرام ، إلا من جهة العلم . وجهة العلم ما نص في الكتاب ، أو في السنة ، أو في الإجماع ، أو القياس على هذه الأصول ما في معناها) ثم قال ابن عبد البر : (أما الإجماع فمأخوذ من قول الله : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين ...** ﴾ لأن الاختلاف لا يصح معه هذا الظاهر . وقول النبي ﷺ : « **لا تجتمع أمتي على ضلالة** » وعندي أن إجماع الصحابة لا يجوز خلافهم فيه ، والله أعلم ، لأنه لا يجوز على جميعهم جهل التأويل ، ثم علق على كلام محمد بن الحسن : (قال أبو عمر : قول محمد بن الحسن : (وما أشبهه) يعني ما أشبه الكتاب . وكذلك قوله في السنة وإجماع الصحابة : يعني ما أشبه ذلك كله فهو القياس) .

وكان قد احتج للأصلين الأولين بأحاديث صحيحة أشهرها : « **تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة نبيه ﷺ** » .

٢ - حقيقة العلم :

وساق أقوالاً في معنى العلم منها قول ابن مسعود: (ليس العلم عن كثرة الحديث إنما العلم خشية الله)، وقول مالك : (الحكمة والعلم نور يهدي به الله من يشاء ، وليس بكثرة المسائل)، وكان العلم والفقه في عهد النبوة إذا أطلق أريد به (حديث رسول الله ﷺ)، وقد دلل على ذلك بأحاديث منها قول النبي ﷺ لأبي هريرة عندما سأله قائلاً : يارسول الله ماذا رد إليك ربك في الشفاعة ؟ فقال : « **والذي نفس محمد بيده لقد ظننت أنك أول من يسألني عن ذلك لما رأيت من حرصك على العلم** » .

قال أبو عمر : في الخبر الأول (لما رأيت من حرصك على الحديث) ، وفي هذا : (لما رأيت من حرصك على العلم) فسمى الحديث علماً على الإطلاق . ومثل ذلك قوله ﷺ: « **نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ثم بلغها غيره ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه** »، فسمى الحديث فقهاً مطلقاً وعلماً ... وكذلك قوله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص إذ أُذِنَ له أن يكتب حديثه: « **قيِّد العلم** » فقال : يارسول الله وما تقييده ؟ قال : « **الكتاب** » فأطلق على حديثه اسم « العلم » لمن تدبره وفهمه .

٣ – ثم قارن بين الرأي والعلم :

فبين أن من صفات العلم الثبات ، ومن صفات الرأي التغير ، نقل ذلك عن جابر بن زيد بعد أن روى عن أحمد بن حنبل قوله : (وإن قلتُ فإنما هو رأي وإنما العلم ما جاء من فوق ، ولعلنا أن نقول القول ثم نرى بعده غيره) قال : ثم ذكر أبو عبد الله حديث عمرو بن دينار عن جابر بن زيد أنه قيل له : يكتبون رأيك ؟ قال : تكتبون ما عسى أن أرجع عنه غداً ؟

فالرأي عندهم ظني والعلم يقيني ، وفي ذلك نقل ابن عبد البر عن إسماعيل القاضي قال: قال محمد بن مسلمة: (إنما على الحاكم الاجتهاد فيما يجوز فيه الرأي، وليس أحد في رأي على حقيقة أنه الحق، وإنما حقيقته الاجتهاد) ثم نقل نقولاً تدل على أن الرأي ظني، وأنهم كانوا يكرهون أن يقولوا بالرأي أو أن يكتب رأيهم.

٤ – تعريف العلم :

قال ابن عبد البر في (باب العبارة عن حدود علم الديانات ووسائل العلوم) : (حد العلم عند العلماء المتكلمين في هذا المعنى : هو ما استيقنته وتبينته وكل من استيقن شيئاً وتبينه فقد علمه ، وعلى هذا من لم يستيقن الشيء ، وقال به تقليداً فلم يعلمه) .

٥ – أنواع المعرفة :

ثم قال : (والعلوم تنقسم قسمين: ضروري، ومكتسب . فحد الضروري ما

لا يمكن العالم أن يشككك فيه نفسه ولا يدخل على نفسه شبهة ، ويقع له العلم بذلك قبل الفكرة والنظر ، ويدرك ذلك من جهة الحس والعقل : كالعلم باستحالة كون الشيء متحركاً ساكناً ، أو قائماً قاعداً ، أو مريضاً صحيحاً في حال واحدة ، ومن الضروري- أيضاً- وجه آخر يحصل بسبب من جهة الحواس الخمس ، كذوق الشيء يعلم به المرارة والحلاوة ضرورة إذا سلمت الجارحة من آفة ، وكرؤية الشيء يعلم بها الألوان والأجسام ، وكذلك السمع يدرك به الأصوات ..

وأما العلم المكتسب فهو ما كان طريقه الاستدلال والنظر ، ومنه الخفي والجلي فما قرب من العلوم الضرورية كان أجلىٰ ، وما بعد منها كان أخفى) اهـ كلام ابن عبد البر .

وهذا التقسيم إنما يقسم به (العلم) باعتباره مصدراً بمعنىٰ حصول المعرفة . فالحصول على المعرفة : إما أن يكون بالضرورة العقلية كالعلم بالبدهيات أو عدم التناقض ، وإما أن يكون بالضرورة الحسية ، كمعرفة الألوان والطعوم وغيرها من المحسات بالجوارح السليمة .

وإما أن يكون بالكسب والاستدلال . ثم يقسم نتيجة المعرفة بهذا المقياس فيقول : (والمعلومات على ضربين شاهد وغائب فالشاهد ما علم ضرورة ، والغائب ما علم بدلالة من الشاهد) .

وهذا التقسيم يوازي ذلك التقسيم : فالمعلومات التي حصلت بالعلم الضروري كالحدس والبداهة يسميها (شاهداً) . والمعلومات التي حصلت بالاستدلال الذي يستخدم (القضايا) المعبرة عما شهده العقل أو شهدته الحواس سابقاً يسميه (غائباً) ، لأنك إنما تستخدم الاستنباط والاستدلال ، كما هو معروف في المنطق عندما تشك في بداهة العقل في الأمر الذي تبحث عنه أي تغيب عنك البداهة فيه ، أو تغيب الحواس عن هذا الأمر ، وتبقى دلالتها في القضايا التي تعبر عن مدلولاتها الحاصلة في خبرات سابقة، فتستخدم هذه القضايا الثابتة بالضرورة في الاستدلال على ما غابت عنك بداهته . وهو معنى قوله : (والغائب ما علم

بدلالة من الشاهد) .

وهكذا يمكن أن نلخص أصول العلم والمعرفة باعتبارين :

- **العلم الشرعي :**

وأصوله القرآن والسنة والإجماع . وهي أصول ضرورية يليها أصل مكتسب هو القياس والرأي ، أي القياس على أصل من تلك الأصول .

- **العلم الكوني والدنيوي :**

وأصوله الضرورية : البداهة العقلية والإحساس بالحواس ، يليها أصل مكتسب هو الاستدلال والنظر ، اعتماداً على الأصول الضرورية .

٦ - أنواع العلوم ومراتبها :

تنقسم العلوم عند ابن عبد البر أيضاً باعتبارين :

(أ) عند أهل الديانات .

(ب) وعند الفلاسفة .

وهذا نص كلامه رتبناه في فقرات حسب طبيعة البحث :

(أ) العلوم عند جميع أهل الديانات ثلاثة : علم أعلى . وعلم أسفل . وعلم أوسط .

١ - **فالعلم الأعلى** : عندهم علم الدين الذي لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أنزله الله في كتابه وعلى ألسنة أنبيائه صلوات الله عليهم نصّاً .

٢ - **والعلم الأوسط** : هو معرفة علوم الدنيا التي يكون معرفة الشيء منها بمعرفة نظرية ، ويستدل عليه بجنسه ونوعه . كعلم الطب والهندسة .

٣ - **والعلم الأسفل** : هو أحكام الصناعات وضروب الأعمال : مثل السباحة والفروسية والزي والتزويق والخط وما أشبه ذلك من الأعمال التي هي أكثر من أن يجمعها كتاب ، أو يأتي عليها وصف . وإنما تحصل بتدريب الجوارح فيها .

(ب) تقسيم العلوم عند الفلاسفة : قال ابن عبد البر عن التقسيم السابق : « وهذا التقسيم في العلوم كذلك هو عند أهل الفلسفة » أي على ثلاثة أنواع :

١ - « إلا أن العلم الأعلى عندهم : هو علم القياس في العلوم العلوية التي ترتفع عن الطبيعة والفلك ، مثل الكلام في حدوث العالم وزمانه ، والتشبيه ونفيه وأمور لا يدرك شيء منها بالمشاهدة ولا بالحواس ، قد أغنت عن الكلام فيها كتب الله الناطقة بالحق المنزلة بالصدق .. » .

٢ - والعلم الأوسط ينقسم عندهم إلى أربعة أقسام كانت عندهم رؤوس العلوم وهي :

١ - علم الحساب .
٢ - والتنجيم .
٣ - والطب .
٤ - وعلم الموسيقى .

٣ - « والأسفل عندهم على ما ذكرنا عن أهل الأديان » .

(جـ) مراتب العلوم وأهميتها في ميزان الإمام يوسف بن عبد البر .

قوّم الإمام ابن عبد البر العلوم السائدة في زمانه بحسب منفعتها ويقينها ونظرة الإسلام إليها . وذكر بعض الموضوعات والأمور التي تبحثها هذه العلوم :

١ - فأما العلم الأعلى عند الفلاسفة (وهو علم القياس في العلوم العلوية مثل حدوث العالم وزمانه ..) فهذه كما قال : (أمور لا يدرك شيء منها بالمشاهدة ولا بالحواس) وهذا نقد في أمرين :

١ - فليست حقائق هذه العلوم من المعلومات الثابتة بالضرورة العقلية .
٢ - ولا بالمشاهدة ولا بالحواس .
٣ - وهي مع ذلك ليست موافقة لما ثبت بالوحي عند أهل الأديان :

فأصولها لا تصح بحال (ويغني عن الكلام فيها كتب الله الناطقة بالحق ، المنزلة بالصدق) كما قال .

٢ - وأما العلوم المتفرعة عن العلم الأوسط فله فيها كلام يدل على سعة اطلاع وبُعد نظر واعتدال . قال :

(أ) « فأما علم الموسيقى واللهو فمطَّرح ومنبوذ عند جميع أهل الأديان ، على شرائط العلم والإيمان » .

(ب) « وأما علم الحساب ، فالصحيح عندهم منه معرفة العدد والضرب والقسمة والتسمية وإخراج الجذور ، ومعرفة جمل الأعداد ، ومعنى الخط والدائرة والنقطة ، وإخراج الأشكال بعضها من بعض وما شاكل ذلك . والحساب علم لا يكاد يستغني عنه ذو علم من العلوم ». وهذا آخر ماتوصلت إليه التربية المعاصرة ، ومناهج العلوم التجريبية ، حول أهمية علم الحساب والرياضيات للعلوم الأخرى .

(جـ) ثم قال عن علم (الفلك) كما يسمى في عصرنا وكان يدعى عندهم (التنجيم) وكان ممزوجاً بما يسمى اليوم (الجغرافيا الطبيعية) كما يبدو من كلامه :

« وأما التنجيم ، فثمرته وفائدته عند جميع أهل الأديان : جرية الفلك ، ومسير الدراري ، ومطالع البروج ، ومعرفة ساعة الليل والنهار ، وقوس الليل من قوس النهار ، في كل بلد وفي كل يوم . وبُعد كل بلد من خط الاستواء ، ومن المجر الشمالي والأفق الشرقي والغربي ، ومولد الهلال وظهوره ، واطلاع الكواكب للأنوار ، ومشيها ، واستقامتها ، وأخذها في الطول والعرض ، وكسوف الشمس والقمر ووقته ، ومقداره في كل بلد ، ومعنى سني الشمس والقمر ، وسني الكواكب . ثم أفاض منكراً ما اختلط في هذا العلم كادعاء علم الغيب وعمر الدنيا ، وما فعله المتخرصون بالنجامة والعيافة والزجر وخطوط الكف ، (وما ادعوه في الجَنَلَان والعلاج بالفكر وملك الجن وما شاكل ذلك مما لا يقبله عقل ولا يقوم عليه برهان ..) .

(د) ثم قال ابن عبد البر مبيناً بعض موضوعات علم الطب وفوائده في عصره:

« وأما الطب فلفهم طبائع نبات الأرض وشجرها ومياهها ومعادنها وجواهرها وطعومها وروائحها ، ومعرفة العناصر والأركان وخواص الحيوان وطبائع الأبدان ، والغرائز ، والأعضاء ، والآفات العارضة وطبائع الأزمان والبلدان ، ومنافع الحركة والسكون ، وضروب المداواة ، والرفق والسياسة » .

فدل كلامه هذا على اختلاط علم وظائف الأعضاء في عصره بعلم الفيزياء والكمياء والمعادن والحيوان والنبات والأدوية والسياسة كلها تحت عنوان (الطب) أو (علم الأبدان) كما قال بعد ما تقدم : (فهذا هو العلم الثاني الأوسط : وهو علم الأبدان ، والأول الأعلى : علم الأديان ، والثالث الأسفل : ما دربت عليه الجوارح كما قدمنا) اهـ كلام الاستاذ النحلاوي[1].



(١) هذا ، وقد تناول الأستاذ عبد البديع الخولي المنهج التربوي عند الحافظ ابن عبد البر في رسالة ماجستير في كلية تربية الأزهر سنة ١٩٧٨هـ بعنوان : (الفكر التربوي في الأندلس في سنة ٤٠٣هـ إلى سنة ٤٧٨هـ) .
وقد اختصر كتاب « جامع بيان العلم وفضله » الأستاذ أحمد بن عبد العزيز الحمصاني البيروتي الأزهري ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية - حرسها الله - تحت رقم ٧٠٢ تصوف .

مقدمة المختصِر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله .

وبعد .

فإني رأيت أن أختصر ما بذلته من جهد في كتاب « **جامع بيان العلم وفضله** » للحافظ ابن عبد البر رحمه الله ، حيث قد توسعت في تخريج أحاديثه وتحقيقها بما يلزم طالب العلم ومحتاج الأسانيد .

ثم نظرت فإذا بطائفة من القرّاء لا يلزمهم كثير مما بذلته في الأصل فرأيت أن أختصر الكتاب بما يفيد هذه الطائفة ويقرب لهم البغية بالحكم على الحديث أو الأثر وشيئًا من التخريج حتى يطمئن قلبه إلى ما يقرأ ، ملتزمًا في ذلك الصحيح المرفوع تاركا ما في أصله من ضعيف ومصنوع حيث لا تقوم الحجة بهما ولا تتم الفائدة .

وما كان من أقوال مقطوعة أو أشعار تساهلت في إيرادها دون البحث في أسانيدها لأن الأمر فيها هين .

ثم أضفت إلى هامش الكتاب فوائد تربوية عظيمة تفيد القاريء والطالب في مسيرته في طلب العلم الشرعي ، وتوقفه علىٰ منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم في ذلك ، فجاء الكتاب بهذه الفوائد كتابًا تربويًا ولله الحمد والمنة .

وإني لأشكر شيخنا ووالدنا المربي الفاضل محمد صفوت نور الدين أطال الله بقاءه

ونفع به الإسلام والمسلمين على ما تفضل به من تقريظ لهذا الكتاب ، فحقا قد حسنه وزينه بقلمه وكلماته فجزاه الله عني خيرًا .

كما لا يفوتني أن أتقدم بخالص شكري وتقديري لأخي وصديقي الحميم ، الداعية السلفي ، الشيخ عبد الفتاح الزيني صاحب « مكتبة ابن تيمية » علىٰ ما أولىٰ هذا العمل من اهتمامٍ بالغٍ ، وحرصٍ زائدٍ ، سائلا الله تعالىٰ أن يُثقِّل به موازينه ، وأن يجعل سعيه في رضاه ، وأن يجمعنا وإياه مع شيخ الإسلام ابن عبد البر - رحمه الله - وسائر أئمة الهُدىٰ من سلفِنا الصالح تحت ظِلِّ عرشه في جَنَّةٍ عرضُها السموات والأرض أُعِدَّت للمتقين آمين آمين .

وكتب

حامدًا ومصليًا ومسلِّمًا على

نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

أبو الأشبال الزهيري

القاهرة فى غرة شهر المحرم سنة ١٤١٦ هـ

هاتف / ٠٢/٥٦١٤٨٦٩